

الخوف ظاهرة بشرية

الكاتب



مصطفى الفقي

د. مصطفى الفقي

الخوف ليس ظاهرة جديدة، ولا صفة ذميمة، إنما هو إحساس بالخشية من أمر ما، ولذلك فالخوف صفة معتادة لدى البشر بدأت من الخوف إزاء غضب الطبيعة، وظواهرها الاستثنائية من زلازل وبراكين وفيضانات وسيول، وصولاً إلى خوف الإنسان من أخيه الإنسان وجبروته، غير المتوقع أو المتوقع، على السواء، فلم يظلم الإنسان في حياته مثلما ظلمه أخوه منذ أسطورة (قابيل وهابيل)، وقد ساوى القرآن الكريم بين الجوع والخوف، وهي مساواة بليغة وعميقة ورائعة، إذ «يقول الحق تبارك وتعالى «الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف

والمساواة بين الجوع والخوف هي فلسفة بلاغية ينفرد بها الذكر الحكيم، وأظن أن الخوف ظاهرة غير استثنائية لأنها تشمل البشر جميعاً بدرجات متفاوتة، فمنهم من يُظهره، ومنهم من يقدر على إخفائه، وقد لاحظت ذلك الأمر بين ركاب الطائرات، فالكل لديه هاجس ولو قليل، ولكن هناك من يبدو عليه أحياناً القلق، وهناك من يخفي ذلك القلق بحيث لا يشعر بما في داخله أحد، كما أن القدرة على الإخفاء تتفاوت من شخص إلى آخر، وما بين الرجل والمرأة، ولكنها في النهاية ميزة يتمتع بها البعض، ولا يتصف بها البعض الآخر، والخوف ظاهرة عاقلة قابلة للتحليل النفسي والعلاج العصبي، فالطفل لا يخاف النار ويمد يديه نحوها بلا وعي حتى إذا لسعته تولدت لديه الخبرة الأولى، وترسبت في أعماقه مخاوف الحرق.

لذلك فإننا نعتز بتعبير خاص ردّدته كتابات الأولين، وأعني به تعبير (شجاعة الجاهل) حتى إن الأدب الشعبي المصري المعاصر يروي قصة خروج الخديوي عباس حلمي الثاني في نزهة بالصحراء ومعه عدد قليل من مرافقيه، حتى وصلوا إلى خيمة أحد العربان على أطراف الصحراء ونزل أحد المرافقين عن حصانه، وقال لشيخ الخيمة: هذا أفندينا عباس

حلمي، فرد الإعرابي كيف حالك يا عباس؟ وماذا تفعل هنا؟ ذلك أنه كان يجهل صورته، فالرجل بعيد عن الصحف ولم يكن التلفزيون قد بدأ، وبالتالي فإن ما فعله ذلك الإعرابي في التجاوز أثناء الحديث مع خديوي مصر كان سببه ما نسميه (شجاعة الجاهل). ويومها قال عباس حلمي لهذا السبب لا نجد الأعراب في الجيش المصري حتى الآن

وهذه الرواية على طرافتها تمثل نموذجاً للجرأة التي تصيب من لا يعرف، والشجاعة التي يتحلى بها من لا يدرك الحقيقة، فالخوف والقلق صفات تتزايد حداثتها مع الوقت، بل إن ظاهرة الخوف من المرض قد صنعت في الأدب الفرنسي شخصية المريض بالوهم الذي يتوهم دائماً أن لديه كل مرض يسمع عنه، أو يعترية الخوف من وصوله إليه، ونحن نؤكد هنا أن الخوف ظاهرة طبيعية، لا يجب النظر إليها من منظور ضيق، بل يجب اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من التركيبة البشرية لأنها صفة من صفات المخلوق الذي يخشى المرض، ويخاف الموت، ويتحسب من المجهول في كل وقت، ولنا هنا وقفات عدة تتمثل في ما يلي

أولاً: إن المبالغة في الخوف جنوح مرضي يحتاج إلى علاج كالخوف من الأماكن المرتفعة، أو من ركوب بعض وسائل * المواصلات، كما نلاحظ أن بعض هذه المخاوف تخضع للعلاج النفسي، فأنا شخصياً أخشى الأماكن المزدحمة بشدة، لذلك لا أدخل في تجمعات بشرية مهما كانت المناسبة، لأنني أشعر باختناق حقيقي، كذلك فإن توقف المصعد نتيجة عطل فني قد سبب لي عقدة نفسية تجعلني حتى الآن أخشى المصاعد، ولا استخدمها إلا في وجود عامل المصعد

ثانياً: إن ظاهرة الخوف من وباء كورونا الذي اجتاح الجنس البشري في الآونة الأخيرة، هي ظاهرة متوقعة، وقد كان * من نتائجها أن المخاوف من الوباء لا تقل في معاناتها عن الوباء ذاته، بل إن تردد الملايين في تعاطي التطعيم الطبي المضاد لذلك الداء إنما يعكس هو الآخر جزءاً من محنة الخوف منه، كذلك فإن انتشار الشائعات حول الوباء وتضارب الأقوال في أسبابه وملابساته واحتمالاته المقبلة، كل هذه الأمور جسدت المخاوف، وأشعرت الجميع بأن الموقف صعب، وأن ما هو قادم قد يكون أصعب

خلاصة القول، إن الإنسان الذي لم يعيش الدهر كله، ولم يعيش في كل مكان، يبدو أمامه المجهول واسعاً وفسيحاً، لذلك فإنه يتعامل معه بكثير من الخوف الدفين والقلق الغامض، خصوصاً أنه كلما اتسعت مساحة المعلوم تزايدت أيضاً مساحة المجهول، وليس العكس كما يتصور البعض من النظرة الأولى. ويبقى هناك جانب مظلم في كل مناحي الحياة مهما سطع الضوء، أو تلاأت المصابيح، فالمجهول يخيف البشر، ويحرمه من التجبر المطلق، فالإنسان محدود الزمان (والمكان، وقد قال فيه القرآن الكريم (إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا